الفصل الثانى

منهج الإسلام فى بناء العقيدة

obeikandl.com

obeikandl.com

توحيد خالص

خلق الله الإنسان فى أحسن تقويم ، إذ أودع فيه من الصفات الظاهرة والمستترة ما جعله متميزاً عن سائر الكائنات الحية ، التى تشترك معه فى الحياة على هذه الكرة الأرضية . ومن أهم ما حظى به هذا المخلوق : الميل إلى الاعتقاد فى قوة أعلى منه ، لها السيطرة عليه ، فهو يتوجه إليها عند السراء والضراء ، يسألها الحفظ من المخاطر والأهوال ، التى قد تقابله فى هذه الحياة ، ويرجو منها العطاء ، سواء كان ذلك فى المال أو البنون .

ولما كانت قدرته العقلية محدودة ، وعاجزة عن تصور هذه القوة التى لا يستطيع رؤيتها ، ليحدد هيئتها ، فقد طاف به الخيال العقلى فى كل صوب ، وذهب به الفكر كل مذهب ، فطفق يرسم لهذه القوة صورة مادية ، يحدد بها هويتها ، ويبين من خلالها معالمها لنفسه . ومن هنا نشأت الصور والأشكال التى اتخذها الإنسان أصناماً وأوثاناً ، يتوجه إليها بالعبادة ، ويسألها الرحمة والعفو ، ويطلب منها الرزق له ولمن يعوله ، ويستغيث بها مما يخافه أو يخشاه .

كثرت صور هذه المعبودات الحسية فى المجتمعات البشرية ، وتعددت أشكالها بتعدد درجات الفكر ومستوى الثقافى فى جميع مناطق الكرة الأرضية ، واختلف مضمونها باختلاف قرب التجمعات البشرية — مكاناً وزماناً — عن منبع التوحيد ، ومصدر الوحى الإلهى ، ذلك أن الأنبياء حينما أرسلهم الله لتصحيح مفهوم العقيدة فى الله الواحد القهار عند الناس ، لم تكن استجابة قومهم — والأجيال من بعدهم — لهم على درجة واحدة ، إذ أن منهم من شرح الله صدره للرسالة ، فنبذ كل صور الجاهلية عن مفهوم المعبود كلية ، ومنهم من اختلط عليه الأمر ، فخلط بين الصورة الواضحة التى بلغها الأنبياء للناس ، وبين رواسب عهود الجاهلية ، التى تخللت فترات بعثة الأنبياء ، فصارت العقيدة عند بعضهم توحيداً مشوباً بالوثنية ، أو اعترافاً بالواحد القهار مع الالتجاء إلى الأصنام والأوثان كوسيلة يتقربون بها إليه .

وكل هذا باطل لا يقبله الله ﷻ ، يقول فى كتابه العزيز :﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر: ٣] ، ويقول فى حق من اتخذوا آلهة غيره ،مبيناً لهم أن هذه الآلهة لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً :﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٣] ، كما بين أن هذه الأصنام التى عبدت من دون الله لا تستطيع دفع الضرر عن نفسها ، فكيف تدفعه عن غيرها :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج: ٧٣ - ٧٤]

كذلك هناك من رفع منزلة بعض الناس إلى مرتبة الألوهية ، فظن أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وقد بين القرآن الكريم خطأ هذا الاتجاه ، فقال :﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ

ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣٠ – ٣١]

فالعقيدة الإسلامية قائمة على التوحيد الخالص الذى لا يشوبه شرك ، فلا إله إلا الله هو الحق الذى لا يدانيه مخلوق ولا يشاركه أحد . هذا هو المفهوم الأول للمنهج الإسلامى فى بناء العقيدة الإسلامية : " **توحيد خالص ، بعيد كل البعد عن صور وأشكال الوثنية** " . إذ لا يقبل فى الإسلام أى شكل من أشكالها ، حتى وإن تغلف بغلاف التوحيد ، أو تلفع برداء وحى إلهى .

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾ ﴾ [الإخلاص: ١ – ٤]

إقناع لا إكراه

ميز الله الإنسان على سائر الكائنات الحية بالفكر ، فهو الكائن الحى الذى استطاع بفكره أن يسطر على قوى الطبيعة ، ويسخر ما فيها لخدمته ، ومن هنا ظهر اعتزاز الإنسان بنفسه ، واعتداده بشخصيته ؛ إذ هو لا يقبل الخضوع لغيره عن طريق القوة والإجبار إلا ظاهرياً فقط ، وذلك عند العجز عن المقاومة ، أو عدم القدرة على الإفلات من الوقوع فى دائرة هذه القوة .

وعندما يقتنع بفكرة ، يسلم بها ، ويخضع خضوعاً كلياً لمقتضياتها ، بحيث يصبح عنده الاستعداد التام للتضحية فى سبيلها بكل ما يملك ، حتى وإن فقد حياته دفاعاً عنها . ولهذا سلك الإسلام معه طريق الإقناع ، لا الإجبار ، حتى لايكون خضوعه نفاقاً ، أو رياءً ، خوفاً من سلطان ، أو رغبة فى نيل مال أو جاه ؛ إذ لا تكون العقيدة – فى نظر الإسلام – إلا عن اقتناع ، وإلا صارت مظهراً لا مضمون له ، وصورة لا أصل لها ، وبناءً لا أساس

له ، وهيكلاً لا أضلاع فيه يعتمد عليها ، فيهوى عند أول لمسة ، ويتكسر من هبوب النسيم قبل أن تأتى الرياح العاتية .

قامت العقيدة الإسلامية على أساس الإقناع العقلى ، فيرفض الإسلام التقليد الأعمى ، ولا يقر الإكراه على الدخول تحت لوائه ، فقد جاء فى القرآن الكريم ما يفيد ذم هذا التقليد ، لأنه يصرف الإنسان عن التفكير بحرية ، وأخذ قرار نابع من الذات ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥١ – ٥٤]

ويقول : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ [المائدة: ٧٧]

فهذه الآيات تشير إلى أن العقيدة لا ينبغى أن تكون تقليداً أعمى للآباء ، أو اتباعاً بدون تفكير لأي اتجاه من اتجاهات المجتمع ، بل لابد أن تكون نابعة من الذات ، نتيجة تفكير مستقل عن أى اتجاه فكرى قد يحيط بالإنسان فى مجتمعه .

فالجمود فى الفكر فى مجال العقيدة مرفوض فى الإسلام ، لأنه ينبغى أن تكون عقيدة الفرد نابعة من اقتناعه بفكره هو ، لا تقليداً لغيره . كذلك نفى القرآن الكريم أن يكون الإكراه وسيلة لاعتناق الإسلام ، يقول تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وقال : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ

﴿ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف: ٢٩] ، بل إنه عاب على النبى ﷺ حرصه الشديد على أن يدخل الناس فى دين الله ، حرصاً قارب حدود الإكراه ، أو فهم منه على أنه يريد إكراه الناس على اعتناق الإسلام ديناً ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [يونس: ٩٩] ، وقال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الغاشية: ٢١ – ٢٢]

فليس من مهمة الرسول ، أو الداعية إكراه أحد على الدخول فى الإسلام ، إذ لا يتعدى واجبه عرض مبادئ الإسلام والدعوة إليها ، أما الدخول فيه ، فلا يكون إلا بناءً عن اقتناع الشخص نفسه به ، وإيمانه بمبادئه إيماناً لا يشوبه إكراه أو إجبار . فالإسلام هو دين العقيدة القائمة على أساس الإقناع العقلى ، لا التقليد ، ولا الإكراه بالقوة ، لأن ذلك يدعو إلى التجمد الفكرى ، وهو أمر يتنافى مع طبيعة الإنسان الذى خلقه الله على نحو كان الفكر هو محور وجودها ، وسر بقائها على هذا النحو الذى نراه فى المجتمعات البشرية .

أساس التفاضل

إذا كان المنهج الإسلامى فى العقيدة قد قام على أساس التفكير الذاتى ، لا على تقليد الغير ، وعلى حرية الفكر فى اعتناق الإسلام ديناً ، لا على الإكراه والإجبار ، فإنه يستفاد من ذلك أن الإسلام يجعل العقل فى المقام الأول ، من حيث الهداية إلى وجود الله ، والتسليم بوحيه ، والامتثال لأوامره ، واجتناب نواهيه .

وكيف لا ، وقد تميز الإنسان به عن سائر الكائنات الحية ، وكيف لا ، وهو الذى مكن الإنسان من السيطرة على ما حوله واستخدامه لضمان عملية الاستمرار فى الحياة ، إذ لولاه لصار الإنسان كائناً مثل الكائنات الأخرى التى يستخدمها ، بل ربما وقع هو تحت سيطرة كائن يتفوق عليه فى مجال الفكر وآفاقه .

ومن هنا جعله الإسلام مقياس التفاضل والتكريم للإنسان ، فقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء: ٧٠] ، ولم يكن هذا التفضيل إلا بالعقل ، لأن الإنسان لم يركب البحر ، ولم يقطع الفيافى والصحارى ، ويتغلب على وعورتها إلا بالعقل . ولم يستخرج الطيبات من الأرض والبحار إلا باستخدام عقله ، فمن لم يستخدم عقله ، فقد وضع نفسه فى مرتبة أقل مما ينبغى له ، بل قد يصل إلى أدنى من مرتبة الدواب الأخرى ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢] ، فمن لم يفكر انحط قدره ، وضاع شأنه بين قومه ، فتنزل منزلته بين الناس ، وتضيع منزلته بين أقرانه .

فالكمال العقلى هو أساس تفضيل شخص على آخر فى الإسلام ، إذ المنهج فى العقيدة الإسلامية ، قائم على أن الناس يتفاضلون ويتمايزون ، لا بالمال والجاه ، ولا بالعرق والنسب ، يقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٠١ – ١٠٣] . ولا تثقل الموازين إلا إذا فكر العقل – بعيداً عن تأثر الأقارب والأصحاب ، ومستقلاً عن تيارات الهوى والشيطان التى تهب فى كثير من المجتمعات – فاهتدى إلى طريق الحق ، فسلكه ونفض عنه رواسب الجاهلية ، وتخلص من براثن الشيطان ، فعمل عملاً صالحاً يرضى الله عنه ، وفى هذا المجال يكون التفاضل أيضاً ؛ إذ على أساس ما يبذل المرء فى مجال العمل الصالح : تكون درجته عند الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ

﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١٣]

أى عليم بما فى قلوبكم من الإيمان وخبير بها ، ومطلع على ما انطوت عليه قلوبكم أثناء مباشرتكم الأعمال الصالحة ، فهو يحاسب على ما فى القلوب ، ويجازى على العمل بالنوايا ، وعلى هذا الأساس يفضل بعضكم على بعض ، ويقدم أحدكم على الآخر ، تبعاً للإخلاص والنوايا الحسنة .

فلا يعترف الإسلام بالدعاوى التى تملأ جوانب الأرض شرقاً وغرباً ، القائمة على نظرة الإكبار والإجلال لمن يملك مالاً كثيراً ، أو يتمتع بجاه أوسع ، أو يبسط نفوذه وسلطانه على رقعة جغرافية أكبر ، أو على عدد أكبر من البشر ، وتنظر إلى هذا كمقياس للتفاضل بين الناس .

كذلك يرفض الإسلام تفضيل عنصر من البشر على آخر ، فلا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى ، فالناس سواسية أمام مبادئ الإسلام ، لا ينفع أحدهم انتماءه لعنصر ما ، أو كونه منسوباً إلى عرق كذا ، وإنما ينفعه فقط عمله ، الذى جاء نتيجة التفكير السليم ، واقتناعه بمبادئ الإسلام ، عمله الذى قام به ابتغاء وجه الله ، لا نفاقاً ، ولا رياءً ، ولا محاولة لكسب مادى دنيوى ، يقول الله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء: ١١٤]

توازن بين الطبيعتين

يفهم كثير من الناس عندما يسمعون كلمة " **رجل متدين** " ، أنه ذلك الرجل الذى انقطع عن الدنيا فزهد فيها ، ورفض طيباتها ، فحبس نفسه فى صومعة صائماً النهار ، قائماً الليل . فإذا خفت هذه الصورة عندهم قليلاً ، تصوروه معرضاً عن ملذات الحياة بكل

أنواعها ، رافضاً الاشتراك فيما يعود على النفس من ترويح ، ويضفى على الحياة ثياب الفرح والسرور ، فهو ذاهب إلى عمله مقطب الجبين ، رافضاً مشاركة زملائه فى الأحاديث الدنيوية البريئة . فإذا سار فى الشارع خفض رأسه ، بحيث لا يرى منه إلا ما أمام قدميه ، ولا يدرك حوله إلا كما يدخل إلى آذان شارد الذهن من أصوات ، وما يتراءى أمام عينى المذهول من صور لا حدود لها ، ولا هوية تفصل بعضها عن بعض ، وهو يظن أنه بذلك يتبع تعاليم الإسلام ، ويلتزم بأحكامه ، وإن لم يفعل ذلك على هذه الطريقة ، وبهذا الأسلوب ، سيناله عقاب الله ، بل إنه يحكم على من لم يفعل مثله بأنه من الهالكين فى نار جهنم .

ونسى هذا أن الله خلق الإنسان من مادة وروح ، وأن استمرارية الحياة على نحو سليم لا تتحقق إلا إذا حصل التوازن نين هاتين الطبيعتين ، فلو اختل هذا التوازن بأن انكب الإنسان على الملذات المادية فقط ، تاركاً الجانب الروحى ، هلك المجتمع ، وهوى فى قاع سحيق ، لا يخرجه منه إلا الرجوع إلى ما يحفظ التوازن . ولو قصر إنسان حياته على الجانب الروحى فقط ، تسرب الضعف إلى المجتمع ، فأصبح فريسة لأعدائه . لأن الجانب المادى له تأثير كبير فى قوة المجتمعات وصمودها أمام من يريد الفتك بها أو السيطرة عليها .

جاء الإسلام موافقاً لهذه الطبيعة الإنسانية ، ففرض من العبادات ما يطهر الفرد من خبائث النفس ، ويحفظه من وساوس شياطين الإنس والجن ، ومع ذلك أمره بألا ينسى الجانب المادى ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ٩ – ١٠] ، وقال : ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى

﴿ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

[الأعراف: ٣١ – ٣٢]

بل إنه أنكر على من يصوم النهار ويقوم الليل فعله ، لأنه مخالف لروح الإسلام ، فقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أنه قال : قال لى رسول الله ﷺ : " **يا عبد الله ! ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟** فقلت : بلى يارسول الله ! قال : **فلا تفعل ، صم وأفطر ، وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقاً ، وإن لعينك عليك حقاً ، وإن لزوجك عليك حقاً ، فاعط كل ذى حق حقه** "

وما هذا إلا لأن الإسلام يريد للمسلم أن يكون قوياً ، بحيث يستطيع أن يسهم فى بناء تقدم الدولة الإسلامية ، لأن تقدمها وسيلة من وسائل المنعة ضد أعدائها ، فكلما كانت قوية اقتصادياً ، استعصى على الأعداء السيطرة عليها .

بل لم يهمل الإسلام دعوة المسلمين إلى الأخذ بأسباب القوة ، أياً كان نوعها ، حتى يردوا أعداءهم عن ديارهم ، فقال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٠]

فالإسلام دين العزة والقوة ، لا دين الضعف ، أو الهروب من الحياة ، فمنهجه يربى المسلم على الالتزام بأداء العبادات ، كما يأمره بالأخذ بأسباب القوة المادية ، وذلك بالنزول إلى معترك الحياة فى جميع مجالاتها ، التى تساعد على تمكين الإسلام فى الأرض ، ورفع رايته عالية خفاقة ، تعلن للناس قوة المسلمين وسلطانهم .

ثبات صلاحية عامة فى الأصول

تختلف ظروف الحياة فى كل عصر وقطر ، وتتجدد الأحداث وتتشعب عبر الأيام والسنين ، فتتنوع صور الحياة من إقليم لإقليم ، ومن عصر لآخر ، ولذا فلا يمكن أن يوضع قانون يصلح لكل هذه الأزمنة والصور عى اختلاف الظروف والبيئات، وتباين أساليب الحياة من شعب لآخر ، فما يصلح لقوم ، قد لا يناسب آخرين ، لتنوع صور المعاملات ، وتعدد الاتجاهات فى أسلوب العلاقات التى تحكم المجتمعات الإنسانية ، وهذا هو السبب الرئيسى فى التغيير المستمر فى الدساتير التى تنظم حياة الأمم والشعوب ، حتى تواكب العصر ، وتتلاءم مع ما يجد من أحداث ، وما يظهر فى حياة المجتمعات من متغيرات ، وعليه فلا يوجد نظام على وجه الأرض — ولن يوجد — يمكن أن يسجل فى قوانينه ولوائحه التى تنظم الحياة ، وتحكم العلاقات الإنسانية ، بنوداً ومواد تشمل كل ما على الأرض من نشاط إنسانى ، على اختلاف أنواعه ومناحيه ، ولذا فمن المسلم به أن الدساتير دائمة التغيير والتبديل ، والقوانين ليست ثابتة ، إذ تعمل فيها عقول المشرعين بالحذف والتجويد ، ليستطيع المجتمع أن يواجه المتغيرات بما يوافقها ، ويسد الثغرات التى تظهرها تجدد الأحداث ، واختلاف العصور والبيئات ، حتى لا تصاب الأنظمة بالجمود ، ولا تنتشر الفوضى ، ويشيع التسيب فى مجال الحياة الاجتماعية ، أو تنتهك العدالة ، فيفترس القوى الضعيف عن طريق ثغرات الضعف فى اللوائح والقوانين .

وقد تكون ضرورة التغيير فى القوانين تحت ظروف العصر وتغير الأحداث باباً ينفذ منه كل من له غرض فى السيطرة على الشعب ، فيفرض ما يساعده على ذلك باسم القانون ، ولن يكون المخرج من هذا إلا باتباع قانون السماء ، فهو الذى لا يحمل فى طياته تمييز عنصر على آخر ، وليس فيه ما يساعد إنساناً — أياً كان وضعه فى المجتمع — على التحكم فى رقاب الآخرين .

كذلك يلى قانون السماء كل ما يحتاج إليه الأفراد ، وتستلزمه حياة المجتمعات ، فهو يتلاءم مع طبيعة البشر ، على اختلاف أجناسهم وألوانهم ، وعلى تباين مشاربهم وظروفهم البيئية والزمنية ، إذ هو لم يحدد التفصيلات التى تختلف من عصر لعصر ، ولم يبين أحكام

الفروع التى تتفاوت هيئاتها وأشكالها من بيئة لأخرى ، بل وضع الخطوط العريضة ، والمبادئ العامة ، والقواعد التى تصلح لكل المجتمعات الإنسانية ، ويمكن تطبيقها أيضاً فى كل أقطار الأرض ، على اختلاف أساليب حياة من يسكنوها ، وتباين معيشتهم ، ثم ترك الفروع – وهى مركز الاختلاف بين سكان المناطق المختلفة – وعلاج ما يجد من أحداث – وهى لازمة من لوازم الحياة الإنسانية – للفقهاء ، يستنبطون أحكامها من الأصول العامة ، قياساً ، أو حملاً للخاص على العام ، أو حملاً للمطلق على المقيد ، أو غير ذلك من طرق استنباط الأحكام داخل الإطار العام للأحكام الإسلامية .

وبذلك تصبح الشريعة الإسلامية صالحة لكل المجتمعات الإنسانية فى جميع الأقطار ، وفى كل العصور ، إذ يمكن أن تطبق على الناس جميعاً ، على اختلاف أساليب حياتهم ، ونظمهم المعيشية . فالاختلاف بين المجتمعات ليس إلا فى أمور فرعية ، أما الشكل العام للحياة ، فالناس جميعاً فيه سواء ، ولهذا جاءت شريعة الله دقيقة ، ومحددة فيما يتعلق بهذا الجزء الذى لا يختلف فيه الناس .

أما الفروع التى يتناولها التغيير بسبب اختلاف المناطق ، أو بسبب تجدد الزمن ، وتعاقب العصور ، فقد ترك أمر استنباط أحكامها للفقهاء ، بشرط ألا تخرج عن الإطار العام للتشريع الإسلامى .

وهذا ما يطلق عليه : الاجتهاد .

اجتهاد واختلاف فى الفروع

بينا فى الفقرة السابقة : أن اختلاف أساليب الحياة فى المجتمعات البشرية ، وتجدد الاحداث على امتداد العصور والأزمان ، كان السبب الرئيسى فى أن التشريع الإسلامى بَيَّنَ الخطوط العريضة للأحكام ، ووضع أحكام المسائل التى يشترك فيها الناس جميعاً ، وفصل فى بيان أحكام ما لا يلحقه تغيير أو تجدد ، مهما طال الزمن وامتد ، أما ما يختلف فيه الناس ، وما يعتريه التغيير بمرور الأحقاب والسنين ، فقد ترك أمر استنباط أحكامه للفقهاء ، وأطلق على عملهم فى هذا المجال اسم : **الاجتهاد** .

فالاجتهاد فى الإسلام أمر ضرورى ، حتمته ظروف الحياة الإنسانية ، وطبيعة اختلاف أساليب الحياة فى المجتمعات البشرية ، وضرورة تجدد الأحداث ، على اختلاف العصور والأزمان ، واستحالة تسجيل أحكام جميع الأحداث التى تتجدد كل يوم فى الوحى السماوى بطريقة شاملة لكل ما يحدث على وجه البسيطة . وعليه فقد أباح الإسلام للمسلمين أن يجتهدوا فى استنباط الأحكام لما يحدث فى المجتمع من القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، فإن لم يجدوا فيهما ما يناسب الحدث بحثوا عن مثيل له ، وإلا استحدثوا له حكماً جديداً ، بحيث يتفق مع روح التشريع الإسلامى .

وقد جاء فى القرآن الكريم والحديث النبوى ما يبين للمسلمين أن هذا النوع من العمل التشريعى مسموح به من وجهة النظر الإسلامية ، يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ ﴾ [التحريم: ١] ، فهذه الآية تبين أن النبى ﷺ اجتهد فى أمر ما ، وأصدر حكمه فيه بالتحريم ، غير أن الوحى صحح له هذا الحكم . كذلك روى البخارى عن ابن عباس ﷺ ، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج ، و لم تحج حتى ماتت ، أأحج عنها ؟ قال: "**نعم ، حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله ، فالله أحق بالوفاء .**"

فهذا الجواب من رسول الله ﷺ قياس ، إذ قاس الحج على الدين فى الوفاء ، والقياس اجتهاد .

وكذلك ما رواه أحمد بسنده إلى عبد الله بن عمر فيما يتعلق بأسرى بدر ، عندما استشار ﷺ أصحابه فى أمرهم ، إذ أشار عليه أبو بكر باستبقائهم وقبول الفدية منهم ، لعل الله يتوب عليهم ، وأشار عمر بضرب أعناقهم ، فمال إلى رأى أبى بكر وقبل الفداء وأطلقهم ، فعاتبه الله على ذلك بآية فى القرآن الكريم ، وهى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ

﴿ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٨]

فكان قبول الفداء منهم اجتهاداً منه ﷺ ، ولم يكن وحياً ، بدليل أن الله عاتبه عليه . وكذلك ما كان منه ﷺ من إذن لمن استأذنه فى التخلف عن غزوة تبوك لأعذار انتحلوها ، فكان اجتهاداً منه ، عاتبه الله عليه بقوله : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[التوبة: ٤٣]

وغير ذلك كثير ، دونته كتب السنة ، فأصبحت اجتهاداته ﷺ بعد إقرارها من الوحى سنة يجب إتباعها ، ولا يجوز معها اجتهاد . وليس لأحد أن يعترض بأن هذه الاجتهادات من رسول الله ﷺ سنة واجبة الاتباع ، فخرجت عن دائرة الاجتهاد ، لأن ابتداءها كان اجتهاداً للتشريع ، أى لتعليم المسلمين أن طريق الاجتهاد – عندما لا يكون هناك نص – أسلوب أحله الإسلام للوصول إلى حكم ما يستجد من أحداث .

فمنهج الإسلام فى الاجتهاد دليل على أن التشريع الإسلامى نزل ليكون دستوراً لجميع الناس ، إذ الاختلاف فيما بينهم ليس عائقاً للتطبيق ، لأن الفروع – التى هى مدار الاختلاف – متروكة للفقهاء ، فمهمتهم المواءمة بين الظروف وبين القواعد العامة فى التشريع ، كما أن فى الاجتهاد علاجاً للمتغيرات والأحداث التى تظهر فى كل عصر ، وبذلك لا يكون هناك نقص مخل فى مجال التشريع .

كان عمل رسول الله ﷺ فى مجال الاجتهاد توجيهاً للمسلمين ، لممارسة هذا الجانب فى مجال التشريع ، للوصول إلى أحكام إسلامية لما يجد من أحداث ، ومن أمثلة هذا التوجيه ، ما رواه الإمام أحمد بسند صحيح ، قال : جاء خصمان إلى رسول الله ﷺ يختصمان ، فقال رسول الله ﷺ : " **قم يا عقبة ، فاقض بينهما** !" ، فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أنت أولى بذلك ، قال : " **اقض بينهما** !" ، فقلت : على ماذا ؟ ، قال : " **إجتهد ، فإن أحسنت فلك عشر حسنات ، وإن اجتهدت فأخطأت ، فلك أجر واحد** ."

كما سأل رسول الله ﷺ معاذاً ، حين بعثه إلى اليمن قاضياً ، فقال له : " **كيف تقضى ، إذا عرض لك قضاء ؟** " قال : أقضى بكتاب الله ، قال : " **فإن لم تجد فى كتاب الله ؟** " قال : أقضى بسنة رسول الله ، قال : " **فإن لم تجد فى سنة رسول الله ؟** " قال : أجتهد رأيي ولا آلو . فضرب رسول الله ﷺ على صدره ، وقال : " **الحمد لله الذى وفق رسولَ رسول الله إلى ما يرضى الله ورسوله** ".

فهذا دليل على أن الاجتهاد واجب للوصول إلى أحكام الأحداث التى لا مثيل لها فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله ﷺ . وهو وإن كان من لوازم الحياة فى كل زمن ، فهو فى عصرنا الحالى أشد إلزاماً ، لأن أساليب الحياة العصرية فى المجتمعات الإنسانية ، انقلبت انقلاباً كلياً ، بحيث أصبحت بعيدة الشبه عما كان عليه حالها فى عصور الإسلام الأولى ، إذ أصبحت المسائل الاقتصادية ، والسياسية ، والاجتماعية ، تختلف فى كثير من جوانبها عما كانت عليه فى العصور الماضية ، فقد ظهرت صور من المعاملات ، وأنواع من السلوك ، ونماذج من العلاقات الاجتماعية ، لم يرد عنها شيء فى كتاب الله ، ولم تدون فى كتب السالفين ، فلم تعرف لها أحكام ، ولم تستقر فى نفوس الناس من الوجهة الدينية .

ومن هذا يتبين أن الاجتهاد لازم من لوازم المجتمعات الإنسانية ، وضرورة من ضرورات الحياة ، فيجب على المسلمين أن يمارسوه ، وإلا كانوا مذنبين فى حق رسول الله ، لأنه حثهم عليه ، وفى حق أمتهم ، لأنهم بتقاعسهم عنه يسهمون بطريق غير مباشر فى تخلفها عن ركب الحضارة . فإن قام به مجموعة من فقهائهم فقد سقط التكليف عن الباقين . وليس لأحد أن يدعى الاجتهاد إلا إذا كانت لديه المقدرة على ذلك ، وقد وضع العلماء لها معالم ، إذا وجدت لدى الشخص ، كان بإمكانه استنباط الأحكام ، ومن هذه المعالم :

١. العلم بنصوص الكتاب والسنة التى تتعلق بالأحكام .
٢. العلم بما عليه جمهور الفقهاء من الأحكام حتى لا يخالفها .
٣. العلم بلسان العرب ، بحيث يمكنه فهم ما جاء فى الكتاب والسنة على اختلاف أساليبها . والمطلوب فى ذلك أن تكون له ملكة لغوية تثبت له بطول الممارسة ، وكثرة الملازمة .

٤. العلم بأصول الفقه وقواعده ، لأنه عماد الاجتهاد وأساسه الذى يقوم عليه بناؤه ، والمراد من ذلك أن يكون المجتهد على علم بما عرض له الأصوليون من أسس وقواعد تهدى المجتهد إلى النظر الصحيح ، والاستنباط السليم ، وتجنبه الخطأ فيها .

وأضيف إلى ذلك أنه يجب أن يكون المجتهد على علم – ولو بصورة إجمالية – بالتيارات الفكرية المعاصرة ، والمذاهب السياسية والاقتصادية العالمية ، والاتجاهات الدينية المختلفة ، والنظم الاجتماعية المتعددة ، والأسس النفسية المتشابكة ، حتى يأتى استنباطه للأحكام ، وتقييمه للأحداث ذات المصادر المتعددة غير بعيد عن واقعها ، ولا متنافراً مع المسلمات الدينية .

كما أنه ينبغى أن تكون لديه ملكة الاستنباط ، لأن من العلماء من يكون ملماً بكل ما تقدم ، ولا يستطيع استنباط حكم ، أو توجيه قضية تشغل بال المسلمين بما يرضيهم نفسياً ، مع توجيههم فيها إلى سلوك طريق يتفق ومبادئ الإسلام ، فهذا عمل لا يقدر عليه إلا ألمعى وهبه الله بصيرة شفافة .

ولا يخفى بعد هذا العرض أن فى منهج الإسلام فى الاجتهاد على هذا النحو اعترافاً بوظيفة العقل الإنسانى ، وتأكيداً لإباحة النظر العقلى فى كل أمر ، بحيث لا يخرج عن أصول الكتاب والسنة ، وفى ذلك رد على كل الفلسفات والأديان التى تسلب العقل أهم ما يتصف به ، وهو النظر فيما حوله ، والتفكير فى كل شئونه بما لا يخرج عن الإطار العام للتشريع الإسلامى ، لأن هذا الإطار هو بمثابة معالم للعقل ، حتى لا يضل ، أو يجنح إلى مسالك تدمر المجتمعات الإنسانية .

obeikandl.com